

الحركات التصحيحية في التصوف الإسلامي

حركة السراج الطوسي نموذجاً

للشيخ الدكتور / عمر مسعود محمد التجاني

أيده الله بتوفيقه

الحركات التصحيحية في التصوف الإسلامي
حركة السراج الطوسي نموذجاً

*
د. عمر مسعود محمد التجاني

التعريف بالإمام أبي نصر السراج الطوسي وكتابه (اللمع في التصوف)

هو أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي ترجم له الحافظ الذهبي في موسوعته (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) في وفيات سنة ٣٧٨هـ صفحة (٦٢٦):

(عبد الله بن علي بن محمد بن يحيى أبو نصر السراج الطوسي مصنف كتاب "اللمع في التصوف": سمع: جعفر الخلدى وأبا بكر محمد بن داود الرقي وأحمد بن محمد السائح، روى عنه: أبو سعيد محمد بن علي النقاش وعبد الرحمن بن محمد السراج وغيرهما قال السلمي: كان أبو نصر من أولاد الزهاد وكان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلم الشريعة وهو بقية مشايخهم اليوم، مات في رجب ومات أبوه ساجداً)[١] .

وترجم له أيضاً في كتابه (العبر في خبر من غبر) (٢/١٥١):

(أبو نصر السراج عبد الله بن علي الطوسي الزاهد شيخ الصوفية وصاحب كتاب اللمع في التصوف، روى عن جعفر الخلدى وأبي بكر بن داود الرقى توفي في رجب)[٢] .

وترجم له تلميذه الإمام أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه (طبقات الصوفية):

(كان أبو نصر من أولاد الزهاد، وكان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلم الشريعة وهو بقية مشايخهم اليوم)[٣] .

أما كتابه (اللمع في التصوف) فهو الكتاب الأم في تاريخ التصوف الإسلامي، وهو أقدم وأوثق مرجع صوفي ومن مادته الخصبة اقتبس كل من أرخ للتصوف، وعلى منهاجه وأبوابه وقواعده ترجم جميع الصوفية لمشايخهم وعلومهم ومسائلهم، وكان المستشرق نيكلسون هو أول من أخرج كتاب اللمع للطباعة، ولكن تحقيقه جاء قاصراً، فقد كان جزءاً من طبعته ناقصاً، لأن المخطوطة التي اعتمد عليها قد فقد منها قسم كبير، ثم قيّض الله الدكتور عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر سابقاً)، والأستاذ طه عبد الباقي سرور فاستكملا ذلك النقص الكبير في طبعة نيكلسون، وأقاما النص، وقد تولى الأستاذ محمد عيد الشافعي جمع المصادر الخاصة بتاريخ السراج الطوسي، ولكن فاته أن يترجم له من كتاب تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي وهو معذور في ذلك لأن التاريخ لم يكن قد طبع إذ ذاك ولا كانت مخطوطته مكتملة.

وقد قام العلامة الأصولي الصوفي شيخ المحدثين بمصر الشيخ محمد الحافظ التجاني بتخريج أحاديث الكتاب التى كانت في مجموعها (٣٧٩) حديثاً بالمكرر، والمكرر منها أربعين حديثاً، فبقيت فيه نحو (٣٣٠) حديثاً أغلبها صحيح وأكثرها في الكتب الستة، وفي بعضها ضعف شديد أو خفيف، لكن له في الصحيح مقابل، كما أنه ينبغى أن يعلم أن التخريج استند إلى دواوين السنة الموجودة وقت تحقيق الكتاب، ولا يبعد أن يكون للسراج الطوسي في مروياته

أسانيد ليس في منتخبات تلك الكتب أعرض عنها اكتفاءً أو التزاماً بشرط، أو طلباً لعلو أو لفائدة. فإن الإمام السراج الطوسي كان في عصر الرواية، وتوفي في السنة التي توفي فيها أمير المؤمنين في الحديث النبوى مسلم بن الحجاج النيسابوري صاحب "صحيح مسلم" قرين "صحيح البخاري" رضي الله عن الجميع.

التصوف وموقعه من الإسلام

لا يختلف المحققون من أهل العلم أن الجيل الأول من الصوفية كانوا على سبيل هدي ومنهاج حق ونتائج تقوى، وكانوا مبلغين للدين الحق بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، بل كانوا حراساً لشريعة الله حفظاً وصوناً، كما صرح بذلك الإمام الحافظ الذهبي في ديوانه الجامع "تذكرة الحفاظ" وترجم لطائفة منهم (انظر مسرد بعض أسمائهم ملحق رقم "١"). ولم يبلغ الناس أواخر القرن الثالث إلا وقد ظهر الخلل في جميع مجالى الإسلام العلمية والعملية في الحكم والسياسة والفقه والأصول والتفسير والتصوف، ففي عالم السياسة كاد أن يفترق السلطان والقرآن، وأما في الفقه فإن نظرة عابرة سريعة تكشف عن مواضع الخلل وآثارها في كتب بعض الفقهاء وفي ممارساتهم مما يقضي عليهم بالخروج من دائرة الفقه بالكلية. لقد تم إغلاق باب الاجتهاد، وتم تحكيم القواعد المستنبطة على النصوص المحكمة وصار الفرع يرجع على أصله بالنقض وحصل توسع مديد في الرأي حتى كادت بعض مسائل الفقه أن تكون معبرة عن غير شريعة الإسلام، وكذلك الأمر في علم الأصول، وانظر تلك المواقف المزعجة من إقامة المعارضة بين العقل والنقل وكيف تمت استباحة حرمات معانى النصوص الشرعية بالتأويل والتعطيل أو بالتشبيه والتمثيل وقد أصاب التصوف الإسلامى ما أصاب غيره من الخلل في الفروع والأصول غير أن الإنكار على هذا الخلل انتهى إلى مدرستين: المدرسة الأولى اعتقدت بطلان التصوف جملة وتفصيلاً أصولاً وفروعاً واعتبرته أمراً لا علاقة للإسلام به ولا علاقة له بالإسلام، وإنما هو روافد ضلالات أهواء مختلقة ومقالات أديان منتسخة وفلسفات أباطيل وهرطقة فدعت هذه المدرسة إلى القضاء على التصوف جملة وتفصيلاً واستئصال علومه من ثقافة المسلمين وهدم مذاهبه كيف كانت وأنى كانت، والمدرسة الأخرى آمنت بالتصوف وأن أصوله حق وأن رواده مشيخة صدق، وأنه منهاج ينتهي بسالكه إلى برد اليقين واللحوق بدرجة السابقين، ولكن أهل هذه المدرسة يصرّحون أيضاً بأنه قد انتسب إليهم من ليس منهم ولا هو على حالهم وأقوالهم وأفعالهم، بل إنهم يصرحون أن في بعض أقوال وأفعال وأحوال المتصوفة ما تقضي عليه نصوص الشرع بالرد وكذلك تقضي عليه أصول التصوف، ثم إن هذه المدرسة لها منهاج واضح في كيفية التعامل مع هذه الأوضاع، فهى إذن مدرسة صوفية تسعى إلى إصلاح الصوفية وتصحيحها.

إن أصل اختلاف المدرستين يرجع إلى اختلافهم في مصدر التصوف وأصله وبداية ظهوره، فتنسبه مدرسة الإنكار التام إلى مصادر غير إسلامية ويختلفون في أي المصادر هى: يونانية وفارسية وهندوكية وبوذية ومسيحية إلى غير ذلك، بينما تحتج المدرسة الأخرى بأن إماماً سلفياً غير صوفي مثل الحافظ الذهبى ينسبه إلى الصحابة والتابعين، فتجده يقول في كتابه "سير أعلام النبلاء" (١٨/٥١٠) في سياق انتقاده على الحافظ أبي إسماعيل الهروى تأليفه (منازل السائرين) يقول:

(يا ليته لا صنف ذلك فما أحلى تصوف الصحابة والتابعين) [١].

وقال أيضاً في كتابه: "تذكرة الحفاظ" (١١٨٥/٣):

(هذا الكتاب لون آخر غير الأنموذج الذي أصفق عليه صوفية التابعين) [٢] .

ويؤكد ذلك العلامة ابن خلدون في مقدمته فيقول (١-٣٩٠):

(إن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة) [٣] .

وأما الشيخ ابن تيمية فيقول كما في مجموع الفتاوى (٥/١١):

(وأما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك) [٤] .

وبديهي أن عدم الشهرة لا تعني عدم الوجود، أما بداية ظهور التصوف في شكل تجمع فإن الشيخ ابن تيمية يذكر أن ذلك كان بالبصرة على يد أصحاب عبد الواحد بن زيد وهم الذين أسسوا أول دويرة للصوفية، قال في مجموع الفتاوى (٦/١١):

(أول ما ظهرت الصوفية من البصرة وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وعبد الواحد من أصحاب الحسن وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية [١]).

ويقول الحافظ الذهبي في كتابه ميزان الاعتدال (٦٧٣/٢) عن عبد الواحد بن زيد:

(شيخ الصوفية وواعظهم لحق الحسن وغيره) [٢] .

وعبد الواحد بن زيد وإن كان مستضعفاً في الرواية إلا أن العلماء لا يشكون في ولايته وصلاحه، ولا يلتفتون إلى قول الجورجاني فإنه متعنت كما هو مشهور عنه، أضف إلى ذلك أن عبد الواحد بن زيد هو من جملة أولياء الله الصالحين المذكورين في كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان للشيخ ابن تيمية، انظر مجموع الفتاوى (١١ /٢٨٢).

أما أول من تكلم في أصول وقواعد التصوف على رؤوس الناس فهو أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي الذي كان الإمام أحمد بن حنبل يسأله عن رأي الصوفية في بعض المسائل، كما نص على ذلك الحافظ الخطيب البغدادي في تاريخه (٣٩٠/١) [٣] . ويؤكد هذه المعلومة أيضاً الحافظ السيوطي في كتابه "الوسائل في معرفة الأوائل" [٤] .

في هذه الورقة البحثية سوف نعتمد مذهب القائلين بإسلامية مصادر الصوفية للأسباب الآتية:

أولاً: إن مشيخة الصوفية إلى زمان الإمام القشيري معروفون مشهورون ليس فيهم من عرفت عنه مداخلة أي مصادر هندوكية أو يونانية أو بوذية أو غير ذلك (انظر مسرد بأسمائهم ملحق رقم "٢").

ثانياً: إن شهادات علماء الشريعة وأئمة السنة في زمان هذه المشيخة كالإمام أحمد بن حنبل وفي غير زمانها كابن تيمية والذهبي تؤكد اعتماد المصدر الإسلامي للتصوف وإلغاء مخالفه، بل إن الشيخ ابن تيمية يرى أن المعنى المستفاد من لفظة صوفي هو المعنى المقصود من لفظة صديق، قال في مجموع الفتاوى (١١/١٦).

(وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون) [١].

ولكن الشيخ ابن تيمية يقرر أيضاً أن هذا لا يجعل الصديقية حكراً على التوجه الصوفي، أو نتيجة طبيعية للنشاط الصوفي، فيقول كما في مجموع الفتاوى (١١/١٦):

(هو – أي الصوفي – في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه فكان الصديق من أهل هذه الطريق كما يقال: صديقو العلماء وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم، فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين أنهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة أنهم صديقون أيضاً كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده وقد يكونون من أجلّ الصديقين بحسب زمانهم، فهم من أكمل صديقي زمانهم، والصدّيق من العصر الأول أكمل منهم، والصدّيقون درجات وأنواع، ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات حققه وأحكمه وغلب عليه، وإن كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه) [٢].

غير أننا إذا اعتمدنا المصدر الإسلامي للتصوف في نشأته وبدايته وأول أمره فهذا لا يعني بالضرورة أننا نعتقد أن المنبع الصافي ظل صافياً، بل المؤكد أنه دخله عكر وتغيير، فقد بدأت تظهر موجات متتابعة من الانحراف عن المذهب الصوفي وذلك بالإخلال بأصوله وقواعده، والخروج عن تقريرات أئمته وكبار المرشدين فيه، وظل هذا الانحراف يزيد حتى غلب الباطل على الحق والعناد على الصلاح إلى درجة جعلت طائفة من أهل العلم تتشكك في مدى إسلامية المصدر الصوفي من أصله.

لقد كان شيوخ الصوفية هم أول من انتبه إلى أن التصوف الإسلامي قد شابته الشوائب وخالف المنتسبون إليه أصوله وقواعده فنشأت من أجل ذلك بين قيادات الصوفية حركات تصحيحية اعتنت بالتنبيه على هذه المخالفات وآثارها والتحذير منها ومن نتائجها.

لقد كان الإمام أبو الحسن علي بن عبد الرحيم النقاد هو أول من بلغنا بحسب علمنا إنكاره على صوفية زمانه، وكان رأيه أن التصوف قد انقرض أهله وذلك لسببين:-

١- ظهور سلوكيات وتصرفات لا تتفق مع المذهب الصوفي مثل الصياح والتواجد والتطبيق.

٢- عدم الاعتماد على مرجعية العلوم الشرعية، قال النقاد:

أهل التصوف قد مضوا صار التصوف مخرقه
صار التصوف صيحة وتواجداً ومطبقه
مضت العلوم فلا علوم ولا قلوب مشرقه
كذبتك نفسك ليس ذا سنن الطريق المخلقه

حتى تكون بعين من عنه العيون المحدقه

تجرى عليك صروفهوهموم سرك مطرقه

ولكن حركة النقاد لم تتعدى فيما نحسب هذه الصيحة التحذيرية من ظهور الانحراف في الوسط الصوفي، كما أننا لا نعرف كثير شيء عن النقاد ولا عن نتائج صيحته التحذيرية.

إن الحركة التصحيحة ذات التأثير القوى والعميق هى بيقين حركة الإمام أبي نصر السراج الطوسي صاحب كتاب (اللمع)، وسوف نشرع الآن في شرح حركته التصحيحة، وأما نتائجها وآثارها فسوف نتعرض له في آخر هذا البحث.

حركة الإمام السراج الطوسي التصحيحية

استفتح الإمام الطوسي حركته التصحيحية بالتنبيه على أن الخائضين في علوم التصوف في زمانه لم يمروا بالتجربة الصوفية، قال: صفحة ٢٢

(اعلم أن في زماننا هذا قد كثر الخائضون في علوم هذه الطائفة، وقد كثر أيضاً المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون إليها والمجيبون عنها وعن مسائلها، وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتاباً قد زخرفه، وكلاماً ألفه، وليس بمستحسن منهم ذلك، لأن الأوائل والمشايخ الذين تكلموا في هذه المسائل وأشاروا إلى هذه الإشارات ونطقوا بهذه الحكم إنما تكلموا بعد قطع العلائق وإماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات والوجد والاحتراق والمبادرة والاشتياق، إلى قطع كل علاقة قطعتهم عن الله عز وجل طرفة عين، وقاموا بشرط العلم، ثم عملوا به، ثم تحققوا في العمل، فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل [١]).

ويشرح الإمام الطوسي السبب الذي يجعل المتكلمين في التصوف في زمانه لا يدخلون في التجربة الصوفية لأنها تجربة صعبة شديدة على النفس الإنسانية، قال صفحة (٣٣):

(هذا علم الخصوص ممزوج بالمرارة والغصص، وسماعه يضعف الركبتين ويحزن القلب ويدمع العين ويصغر العظيم ويعظم الصغير، فكيف استعماله ومباشرته وذوقه ومنازلته، وليس للنفس في منازلته حظ لأنه منوط بإماتة النفوس وفقد الحسوس) [٢].

كما أن الإمام الطوسي يرى أن الغلط في التصوف ليس كالأغلاط العادية يقول صفحة (٥١٦):

(إن الغلط في كل شيء أهون من الغلط في التصوف وفي علمه، لأنها مقامات وأحوال وإرادات ومراتب وإشارات، فمن تخطى في ذلك إلى ما ليس له فقد اجترأ على الله، فيكون الله خصمه، فإن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه بما شاء وكيف شاء) [١].

وقد جعل الإمام الطوسي الغلط الذي وقع فيه المنتسبون إلى الصوفية على طبقات ثلاث، قال صفحة (٥١٩):

(إني نظرت إلى الفرق الذين غلطوا فوجدهم على ثلاث طبقات: طبقة منهم غلطوا في الأصول من قلة إحكامهم لأصول الشريعة وضعف دعائهم في الصدق والإخلاص وقلة معرفتهم بذلك، كما قال بعض المشايخ، حيث يقول:

إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول. وطبقة ثانية منهم غلطوا في الفروع وهي الآداب والأخلاق والمقامات والأحوال والأفعال والأقوال، فكان ذلك من قلة معرفتهم بالأصول ومتابعتهم لحظوظ النفس ومزاج الطبع، لأنهم لم يدنوا ممن يروضهم ويجرعهم المرارات ويوقفهم على المنهج الذي يؤديهم إلى مطلوبهم، فهم متحيرون ومتفرقون بين منهزم ومفتون ومتحير ومحزون ومغتر بالظنون ومخترف بالجنون ومتلبس بالمجون ومكمد بالشجون ومدع ومفتون ومتمن للمنون، فسبحان من قسم لهم بذلك، وهو العالم بدائهم ودوائهم وسقمهم وشفائهم. والطبقة الثالثة كان غلطهم فيما غلطوا فيه زلة وهفوة لا علة وجفوة، فإذا تبين ذلك عادوا إلى مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، فسدوا الخلل ولموا الشعث وتركوا العناد وأذعنوا للحق وأقروا بالعجز فعادوا إلى الأحوال المرضية والأفعال السنية والدرجات الرفيعة، فلم تنقص مراتبهم هفوتهم، ولم تظلم الوقت عليهم جفوتهم، ولم تمتزج بالكدورة صفوتهم، وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث على أحوال شتى من التفاوت والإرادات والمقاصد والنيات [٢].

الغلط في الفروع:

١- الفقر والغناء والكسب وتركه

بيّن الإمام الطوسي أن الفقر الذي يتكلم عليه الصوفية هو الافتقار إلى الله، وهو عين الغنى بالله، أما الفقر الذي هو عدم المال والغنى الذي هو كثرة المال فلا فضيلة فيهما، وإنما الفضيلة في حال صاحبهما هل هو حال من شئون العبودية أم لا، وشئون العبودية في الفقر هي الصبر والتفويض والرضا والسكون والطمأنينة، وشئون العبودية في الغنى هي الشكر وشهود المنة وآداء الحق، ويتفرع على الغلط في الغنى والفقر الغلط في التكسب وترك التكسب.

٢- العبادة والمجاهدة

بيّن الإمام الطوسي أن العبادة والمجاهدة مقصود بها طاعة الله وحده تقرباً إليه، وليس مقصوداً بها الوجاهة عند الناس أو ظهور خوارق العادات على يد العابد المجتهد، وقد غلطت طبقة من الصوفية في هذا. قال الطوسي صفحة (٥٢٥):

(إن طبقة من الصوفية غلطت في العبادات والمجاهدات ورياضات النفوس والمكابدات، فلم تحكم في ذلك أساسها، ولم تضع الأشياء مواضعها فانهزمت ونكصت على أعقابها القهقرى، وذلك أنهم حين سمعوا بمجاهدات المتقدمين وما نشر الله بذلك أعلامهم في خلقه بالثناء الجميل والقبول عند الناس وإظهار الكرامات طمعت نفوسهم وتمنوا فتكلفوا شيئاً من ذلك، فلما طالت المدة ولم يصلوا إلى مرادهم كسلوا، فإذا دعاهم داعي العلم إلى المجاهدة والعبادة ورياضة النفس فلا يقام لذلك عندهم وزن).

٣- ترك الطعام

يقول الطوسي صفحة (٥٢٧):

(إن جماعة من المريدين والمبتدئين سمعوا علم مخالفة النفوس فتوهموا أن النفس إذا انكسرت بترك الطعام يؤمن شرها وبوائقها وعوائقها، فتركوا عاداتهم من الطعام والشراب، ولم يستعملوا الأدب في ترك الطعام ولم يستبحثوا عن الأستاذين آدابها، فعمدوا إلى ترك الطعام وواصلوا الليالى والأيام وظنوا أن ذلك حال.

وقد غلطوا في ذلك لأن المريد ينبغي أن يكون له مؤدب يوقفه على ما يحتاج إليه حتى لا يتولد من إرادته بلاء وفتنة لا يقدر أن يتلافاها ولا يتخلص من فسادها، والنفس لا يؤمن شرها ولا يذهب عنها ما جبلت عليه من الشر وهي الأمارة بالسوء، فمن ظن أن النفس إذا انكسرت بالجوع بقلة المطعم فقد زال عنها شرها وآفات بشريتها حتى يأمنها صاحبها فقد غلط [١]).

٤- العزلة

قال الطوسي صحفة (٥٢٧):

(وطائفة اعتزلت ودخلت كهوف الجبال وظنوا أنهم يهربون من الخلق، أو يأمنون في الجبال والفلوات من شر نفوسهم، أو يوصلهم الله تعالى بالانفراد والخلوة إلى ما أوصل إليه أولياءه من الأحوال الشريفة ولا يوصلهم إلى ذلك بين الناس وقد غلطوا في ذلك) [٢].

٥- الجب

قال الطوسي صفحة (٥٢٨):

(وجماعة جبوا أنفسهم وظنوا أنهم إذا قطعوا ذلك سلموا من آفات الشهوة النفسانية،

وقد غلطوا في ذلك لأن الآفات تبدو من الباطن، فإذا قطعت الآلة والعلة موجودة في الباطن لم ينفع ذلك بل يضر وتزداد الآفة. فمن ظن أن الآفة في الآلة الظاهرة ويتخلص بقطع ذلك من شرها فهو في غلط) [٣].

٦- السفر بلا زاد

قال الطوسي صفحة (٥٢٨):

(وقوم هاموا على وجوههم ودخلوا البراري والبوادي بلا زاد ولا ماء ولا آلة الطريق، وتوهموا أنهم إذا فعلوا ذلك نالوا ما نال الصادقون من حقيقة التوكل، وقد غلطوا في ذلك لأن القوم الذين كان هذا دأبهم كانت لهم بدايات وتأدبوا بآداب وراضوا أنفسهم قبل ذلك بالمجاهدات، وكانوا مستقلين بأحوالهم لم يبالوا بالقلة ولم يستوحشوا من الوحدة، فكم من موتة ماتوا؟ وكم من مرارة ذاقوا؟ حتى استوت أحوالهم في الخراب والعمران والسهل والجبل والجماعة والوحدة والعز والذل والجوع والشبع والحياة والموت. فمن فعل شيئاً من ذلك وتوهم أنه قد نطق بشيء من أحوال المتوكلين فهو في غلط) [٤].

٧- لبس الصوف

قال الطوسي صفحة (٥٢٩):

(وجماعة تكلفوا لبس الصوف واتخذوا المرقعات المعمولة وحملوا الركاء ولبسوا المصبوغات وتعلموا الإشارات وظنوا أنهم إذا فعلوا ذلك أنهم من الصوفية. وقد غلطوا في ذلك لأن التحلي والتلبس والتشبه لا يورث لصاحبه غير الحسرة والندامة والعتب والملامة والشنار والنار في يوم القيامة. فمن ظن أو توهم أنه يصل إلى أحوال أهل الحقائق بالتلبس

والتشبه بهم فهو في غلط) [٥].

٨- معرفة التجربة بغير تجربة

قال الطوسي صفحة (٥٢٩):

(وجماعة أخرى جمعوا علوم القوم وعرفوا إشاراتهم وحفظوا حكاياتهم وتكلفوا ألفاظاً صحيحة وعبارات فصيحة، وظنوا أنهم إذا فعلوا ذلك فقد صاروا منهم ووصلوا إلى شيء من أحوالهم وقد غلطوا في ذلك) [٦].

٩- وضع ميزانية مالية محكمة والانصراف للعبادة

قال الطوسي صفحة (٥٢٩):

(وجماعة أخرى أحرزوا قوتهم وسكنت نفوسهم بنفقة معلومة ودراهم موضوعة ثم عمدوا بعد ذلك إلى أورادهم من الصوم والصلاة وقيام الليل والورع ولباس الخشن والبكاء والخشية، وظنوا أن هذا هو الحال المقصود الذي لا يكون بعده حال وقد غلطوا في ذلك) [٧].

١٠- الأناشيد والرقص والاجتماع على الطعام

قال الطوسي صفحة (٥٣٠):

(وجماعة ظنوا أن التصوف هو السماع والرقص واتخاذ الدعوات وطلب الإرفاق والتكلف للاجتماعات على الطعام وعند سماع القصائد والتواجد والرقص ومعرفة صياغة الألحان بالأصوات الطيبة والنغمات الشجية والاختراع من الأشعار الغزلية بما يشبه أحوال القوم على نحو ما رأوا من بعض الصادقين أو بلغهم ذلك عن المتحققين وقد غلطوا في ذلك) [٨].

الغلط في الأصول

١- الرؤية بالقلوب:

قال الطوسي صفحة (٥٤٤):

(بلغني عن جماعة من أهل الشام أنهم يدعون الرؤية بالقلوب في دار الدنيا كالرؤية بالعيان في دار الآخرة، ولم أر أحداً منهم ولا بلغني عن إنسان أنه رأى منهم رجلاً له محصول، ولكن رأيت لأبي سعيد الخراز رحمه الله كتاباً كتبه إلى أهل دمشق يقول فيه: بلغني أن بناحيتكم جماعة قالوا كذا وكذا وذكر قولاً قريباً من هذا القول، ويشبه أن في زمانه قوم غلطوا في ذلك وضلوا وتاهوا.

والذي قال أهل الحق والإصابة في هذا المعنى وأشاروا إلى رؤية القلوب إنما أشاروا إلى التصديق والمشاهدة بالإيمان وحقيقة اليقين. كما روى في حديث حارثة حيث يقول:

(كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً)، كما جاء في الحديث بطوله حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم (عبد نور الله تعالى قلبه) أو كما قال كما جاء في الرواية.

والذي تاه وتوسوس في هذا المعنى قوم من أصحاب الصبيحي من أهل البصرة كما بلغني، وقد رأيت جماعة منهم وذلك أنهم حملوا على أنفسهم في المجاهدة والسهر وترك الطعام والشراب والانفراد والخلوة وكثرة التوكل وصحبهم الإعجاب مع ذلك بما هم فيه فاصطادهم إبليس لعنه الله فخيّل إليهم كأنه على عرش أو سرير وله أنوار تتشعشع، فمنهم من ألقى إلى بعض الأستاذين الذين يعرفون مكائد العدو فعرفوهم ذلك ودلوهم وردوهم إلى الاستقامة.

كما حكي عن سهل بن عبد الله رحمه الله أن بعض تلامذته قال له يوماً يا أستاذ أنا في كل ليلة أرى الله بعين رأسي، فعلم سهل رحمه الله أن ذلك من كيد العدو فقال له: يا حبيبي إذا رأيته الليله فابزق عليه، قال: فلما رآه من ليلته بزق عليه، قال: فطار عرشه وأظلمت أنواره وتخلص من ذلك الرجل و لم ير شيئاً بعد ذلك.

ومن لم يقع إلى الأستاذين فيدفع ذلك ويتكلم بالهوس وينسلخ عن دينه بالظنون الكاذبة إلى آخر عمره) [٩].

١- الأنوار

قال الطوسي صفحة (٥٤٨):

(وطائفة غلطت في الأنوار وزعمت أنها ترى أنواراً، وبعضهم يصف قلبه بأن فيه أنواراً، ويظن أن ذلك من الأنوار التي وصف الله تعالى بها نفسه وهذه الطائفة تصف ذلك النور بصفة أنوار الشمس والقمر، وتزعم أن ذلك من أنوار المعرفة والتوحيد والعظمة، وتزعم أنها ليست بمخلوقة.

وقد غلط هؤلاء في ذلك غلطاً عظيماً لأن الأنوار كلها مخلوقة، نور العرش ونور الكرسي ونور الشمس والقمر والكواكب، وليس لله نور موصوف محدود، والذي وصف الله تعالى به نفسه فليس ذلك بمدرك ولا محدود ولا يحيط به علم الخلق، وكل نور تحيط به العلوم والفهوم فهو مخلوق) [١٠].

٢- الفناء عن الأوصاف:

قال الطوسي صفحة (٥٥٢):

(وقد غلطت جماعة من البغداديين في قولهم إنهم عند فنائهم عن أوصافهم دخلوا في أوصاف الحق، وقد أضافوا أنفسهم بجهلهم إلى معنى يؤديهم ذلك إلى الحلول أو إلى مقالة النصارى في المسيح عليه السلام، وقد زعم سمع أنه عن بعض المتقدمين أو وجد في كلامه أنه قال في معنى الفناء عن الأوصاف والدخول في أوصاف الحق. فالمعنى الصحيح من ذلك أن الإرادة للعبد وهي من عند الله عطية، ومعنى خروج العبد من أوصافه والدخول في أوصاف الحق خروجه من إرادته ودخوله في إرادة الحق، وبمعنى أن يعلم أن الإرادات هي عطية من الله تعالى وبمشيئته شاء وبفضله جعل له ما يعطيه ذلك قطعة عن رؤية نفسه حتى ينقطع بكليته إلى الله تعالى، وذلك مترل من منازل أهل التوحيد.

وأما الذين غلطوا في هذا المعنى إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم حتى ظنوا أن أوصاف الحق هي الحق، وهذا كله كفر، لأن الله تعالى لا يحل في القلوب ولكن يحل في القلوب الإيمان به والتوحيد له والتعظيم لذكره بمعاني التحقيق والتصديق،

ولا فرق في ذلك بين الخاص والعام، غير أن للخاصة معنى يتفردون به وهو مفارقتهم دواعي الهوى وإفناء حظوظهم

من الدار وما فيها وخلوص أسرارهم بمن آمنوا به. وسائر العوام محجبون عن هذه الحقائق بانقيادهم للهوى ومطاوعتهم للنفوس. فهذا هو الفرق بين الخاص والعام في هذا المعنى) [١١].

٣- النبوة والولاية

قال الطوسي صفحة (٥٣٥):

(ضلت فرقة أخرى في تفضيل الولاية على النبوة، ووقع غلطهم في قصة موسى والخضر عليهما السلام وتفكرهم في ذلك برأيهم، فظنت هذه الطائفة الضالة أن ذلك نقص في نبوة موسى عليه السلام وزيادة للخضر عليه السلام على موسى في الفضيلة، فأداهم ذلك أن فضلوا الأولياء على الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذهب عنهم أن الله جل وعز يخص من يشاء بما يشاء كيف يشاء، ولو بدت ذرة على الخضر عليه السلام من أنوار موسى عليه السلام وتخصيصه بالكلام لامتَحَقَ الخضر عليه السلام، ولكن حجبه الحق عن ذلك تهذيباً وزيادة لموسى عليه السلام فافهم ذلك إن شاء الله تعالى. والولاية والصديقية منورة بأنوار النبوة، فلا تلحق النبوة أبداً فكيف تفضل عليها؟) [١٢].

٤- الإباحة والحظر

قال الطوسي صفحة (٥٣٨):

(زعمت الفرقة الضالة في الحظر والإباحة أن الأشياء في الأصل مباحة وإنما وقع الحظر للتعدي فإذا لم يقع التعدى تكون الأشياء على أصلها من الإباحة. وإنما غلطوا في ذلك بدقيقة خفيت عليهم من جهلهم بالأصول وقلة حظهم من علم الشريعة ومتابعتهم شهوات النفوس في ذلك، لأنهم سمعوا بمكارم الأخلاق وحسن عشرة ومؤاخاة كانت بين جماعة من المشايخ المتقدمين، فجرى بينهم أحوال من رفع الحشمة والبسط بعضهم مع بعض، حتى كان أحدهم يمر إلى دار أخيه ويمد يده فيأكل من طعامه ويأخذ من كسبه حاجته ويفتقد أحوال أخيه وهو غائب كما يفتقد لنفسه، فظنت هذه الطائفة الضالة بالإباحة، لأن ذلك كان منهم على حال جاز لهم ترك الحدود أو أن يجاوزوا حد متابعة الأمر والنهي، فوقعوا من جهلهم في التيه، وتاهوا وطلبوا ما مالت إليه نفوسهم من اتباع الشهوات وتناول المحظورات تأويلاً وحيلاً وكذباً وتمويهاً) [١٣].

٥- فناء البشرية

قال الطوسي صفحة (٥٤٣):

(أما القوم الذين غلطوا في فناء البشرية سمعوا كلام المتحققين في الفناء فظنوا أنه فناء البشرية فوقعوا في الوسوسة، فمنهم من ترك الطعام والشراب وتوهم أن البشرية هى القالب والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها، فيجوز أن يكون موصوفاً بالصفات الإلهية.

ولم تحسن هذه الفرقة الجاهلة الضالة أن تفرّق بين البشرية وبين أخلاق البشرية، لأن البشرية لا تزول عن البشر، كما أن لون السواد لا يزول عن الأسود، ولا لون البياض عن الأبيض، وأخلاق البشرية تتبدل وتتغير بما يرد عليها من

سلطان أنوار الحقائق، وصفات البشرية ليست هى عين البشرية والذي أشار إلى الفناء أراد به فناء رؤيا الأعمال والطاعات ببقاء رؤيا العبد لقيام الحق للعبد بذلك) [١٤].

٦- عين الجمع

قال الطوسي صفحة (٥٤٩):

(وجماعة غلطوا في عين الجمع فلم يضيفوا إلى الخلق ما أضاف الله تعالى إليهم، و لم يصفوا أنفسهم بالحركة فيما تحركوا فيه، وظنوا أن ذلك منهم احترازاً حتى لا يكون مع الله سوى الله عز وجل، فأداهم ذلك إلى الخروج من الملة وترك حدود الشريعة لقولهم إنهم مجبورون على حركاتهم، حتى أسقطوا اللائمة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود ومخالفة الإتباع.

ومنهم من أخرجه ذلك إلى الجسارة على التعدي والبطالة، وطمعته نفسه على أنه معذور فيما هو عليه مجبور.

وإنما غلط هؤلاء لقلة معرفتهم بالأصول والفروع، فلم يفرقوا بين الأصل والفرع، و لم يعرفوا الجمع والتفرقة، فأضافوا إلى الأصل ما هو مضاف إلى الفرع، وأضافوا إلى الجمع ما هو مضاف إلى التفرقة، فلم يحسنوا وضع الأشياء في مواضعها فهلكوا) [١٥].

٧- فقد الحسوس

قال الطوسي صفحة (٥٥٣):

(زعمت طائفة من أهل العراق أنهم يفقدون حسهم عند المواجيد حتى لا يحسوا بشيء ويخرجوا عن أوصاف المحسوسين، وقد غلطوا في ذلك، لأن فقد الحس لا يعلمه صاحبه إلا بالحس، لأن الحس صفة البشرية وإن غلب عليه باد من الواردات التي ترد على الأسرار وتقهرها بسلطانها فيطمئن ويمتحق ويكون مثل ذلك كمثل الكواكب إذا طلع عليها سلطان أنوار الشمس تطمس أنوار الكواكب وهى ممتحقة في أماكنها. فكذلك الحس لا يزول ولا يفقد على البشر الحي ولكن ربما يغيب العبد عن حسه بحسه عند المواجيد الحادة عن الأذكار القوية) [١٦].

٨- الحرية والعبودية

قال الطوسي صفحة (٥٣١):

(ظنت الفرقة الضالة أن اسم الحرية أتم من اسم العبودية للمتعارف بين الخلق أن الأحرار أعلى مرتبة وأسنى درجة في أحوال الدنيا من العبيد، فقاست على ذلك، فضلّت وتوهّمت أن العبد ما دام بينه وبين الله تعالى تعبّد فهو مسمى باسم العبودية، فإذا وصل إلى الله فقد صار حراً، وإذا صار حراً سقطت عنه العبودية. وإنما ضلت هذه الفرقة لقلة فهمها وتضييعها لأصول الدين.

خفيت على هذه الفرقة الضالة أن العبد لا يكون في الحقيقة عبداً حتى يكون قلبه حراً من جميع ما سوى الله عز وجل، فعند ذلك يكون في الحقيقة عبداً لله) [١٧].

٩- الإخلاص

قال الطوسي صفحة (٥٣٣):

(زعمت الفرقة الضالة من أهل العراق وغيره أن الإخلاص لا يصح للعبد حتى يخرج عن رؤية الخلق، ولا يوافقهم في جميع ما يريد أن يعمله كان ذلك حقاً أو باطلاً، وقد خفيت عليهم لشقاوتهم أن العبد المطلوب لدرجة الإخلاص هو العبد المهذب المؤدب الذي هجر السيئات وجرد الطاعات وعمل في الإرادات ونازل الأحوال والمقامات حتى أداه ذلك إلى صفاء الإخلاص) [١٨].

١٠- الصفاء والطهارة

قال الطوسي صفحة (٥٤٧):

(وطائفة ادعت الصفاء والطهارة على الكمال والدوام، وأن ذلك لا يزول عنهم، وزعموا أن العبد يصفو من جميع الكدورات والعلل بمعنى البينونة منها. وقد غلطوا في ذلك لأن العبد لا يصفو على الدوام من جميع العلل وإن وقعت له الطهارة وقتاً فلا يخلو من العلل، وإنما تصفو له وقتاً دون وقت على مقدار أماكنهم، فيذكر الله بنعت الصفاء ثم يبقى عليه الذكر مع جريان ادِّكار الأشياء عليه.

والطهارة تكون لقلب العبد من الغل والحسد والشرك والتهم، فأما الصفاء الذي لا يحتمل العلة والطهارة من جميع أوصاف البشرية على الدوام بلا تلوين ولا تغيير ليس ذلك من صفات الخلق لأن الله تعالى هو الذي لا تلحقه العلل ولا تقع عليه الأغيار، والخلق مراد بالابتلاء أني يخلون من العلل والأغيار) [١٩].

١١- الأنس والبسط

قال الطوسي صفحة (٥٥١):

(وطبقة أشاروا إلى القرب والأنس، وتوهّموا أن بينهم وبين الله عز وجل حال من القرب والدنو فأحشمهم عند ذلك التوهم الرجوع والالتفات إلى الآداب التي كانوا يراعونها، والحدود التي كانوا يحفظونها قبل ذلك، فانبسطوا إلى ما كانوا محتشمين وأنسوا بأشياء كانوا عنها مستوحشين من قبل ذلك، وتوهموا أن ذلك قربهم ودنوهم.

وقد غلطوا في ذلك وهلكوا، لأن الآداب والأحوال والمقامات خلع من الله تعالى على عباده وكرامة لهم وهم مستوجبون الزيادة إذا صدقوا في قصودهم، فمتى ما تركهم وخلاهم عن توفيقه وعنايته بهم حتى جاوزوا الحدود وخالفوا ما أمروا به قد نكصوا على أعقابهم وسلبوا الخلع التي أكرموا بها من الطاعات، وقد طردوا من الباب، وصارت سمتهم سمة المطرودين وهم عندهم أنهم من المقبولين، وكلما توهموا أن الذي هم عليه قرب ودنو ازدادوا بذلك من الله سحقاً وبعداً) [٢٠].

١٢- الروح

قال الطوسي صفحة (٥٥٤):

(ثم جماعة غلطوا في الأرواح وهم طبقات شتى، كلهم تاهوا وغلطوا لأنهم تفكروا في كيفية ما رفع الله عنه الكيفية

ونزهه عن إحاطة العلم في أن يصفه أحد إلا بما وصفه الله به.
فقوم قالوا: الروح نور من نور الله فتوهموا أنه نور ذاته فهلكوا.
وقوم قالوا: حياة من حياة الله تعالى.
وقوم قالوا: الأرواح مخلوقة وروح القدس من ذات الله تعالى
وقوم قالوا: أرواح العامة مخلوقة وأرواح الخاصة ليست بمخلوقة.
وقوم قالوا: الأرواح قديمة إنها لا تموت ولا تعذب ولا تبلى.
وقوم قالوا: الأرواح تتناسخ من جسم إلى جسم.
وقوم قالوا: للكافر روح واحدة، وللمؤمن ثلاث أرواح، وللأنبياء والصديقين خمس أرواح.
وقوم قالوا: الروح خلق من النور.
وقوم قالوا: الروح روحانية خلقت من الملكوت فإذا صفت رجعت إلى الملكوت.
وقال قوم: الروح روحان روح لاهوتية وروح ناسوتية.
وهؤلاء كلهم قد غلطوا فيما ذهبوا إليه وضلوا ضلالاً مبيناً وجهلوا ما يلزمهم في ذلك من الخطأ وذلك من تعمقهم وتفكرهم بآراءهم فيما منع الله تعالى قلوب العباد من التفكر فيه لقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} الإسراء٨٥) [٢١].

موقف السراج الطوسي من الشطحات المنسوبة للأكابر من شيوخ الصوفية:

يقرر السراج الطوسي مبادىء يرى ضرورة الالتزام بها لمن أراد أن يقرر لنفسه أو لغيره الحق ووجهه:

١- **إن حرمة الأولياء يجب أن تكون محفوظة ومرعية**

يقول الطوسي صفحة (٤٥٤):

(ليس لأحد أن يبسط لسانه بالوقيعة في أولياءه ويقيس بفهمه ورأيه ما يسمع من ألفاظهم وما يشكل على فهمه من كلامهم، لأنهم في أوقاتهم متفاوتون، وفي أحوالهم متفاضلون ومتشاكلون ومتجانسون بعضهم لبعض، ولهم أشكال ونظراء معروفون، فمن بان شرفه وفضله على أشكاله بفضل علمه وسعة معرفته فله أن يتكلم في عللهم وإصابتهم ونقصانهم وزيادتهم، ومن لم يسلك سبلهم ولم ينح نحوهم ولا يقصد مقاصدهم فالسلامة له في رفع الإنكار عنهم وأن يكل أمورهم إلى الله تعالى ويتهم نفسه بالغلط فيما ينسبه إليهم من الخطأ) [٢٢].

٢- **إن العلم أوسع من أن يحيط به عالم**

يقول الطوسي صفحة (٤٥٥):

(إن العلم أكثر من أن يحيط به فهم الفهماء أو تدركه عقول العقلاء، وكفاك بقصة موسى والخضر عليهما السلام مع جلالة موسى عليه السلام وما خصه الله به من الكلام والنبوة والوحي والرسالة.

وقد ذكر الله في المحكم الناطق على لسان نبيه الصادق عجز موسى عليه السلام عن إدراك علم عبد من عباده إذ قال تعالى {فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً} الكهف٦٥ حتى سأله فقال {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً} الكهف٦٦، مع تأييد موسى عليه السلام وشرفه وعصمته من الإنكار عليه، على أن الخضر عليه السلام لم يلحق درجة موسى عليه السلام في النبوة والرسالة والتكليم أبداً. فمن أجل ذلك قلنا لا ينبغي لأحد أن يظن أنه يحوي جميع العلوم حتى يخطىء برأيه كلام المخصوصين ويكفرهم ويزندقهم وهو متعرٍ من ممارسة أحوالهم ومنازلة حقائقهم وأعمالهم) [٢٣].

٣- التثبت من أن الكلام الشاطح قد صحت نسبته إلى المنسوب إليه

قال الطوسي صفحة (٤٧٣):

(قصدت بسطام وسألت جماعة من أهل بيت أبي يزيد رحمه الله عن هذه الحكاية:

" يعني أنه قال: سبحاني سبحاني" فأنكروا ذلك وقالوا لا نعرف شيئاً من ذلك) [٢٤].

٤- على تقدير ثبوت الشطح فيجب إثبات أنه مفصل لا مجمل، مبيّن لا مطلق

قال الطوسي صفحة (٤٨١):

(إن كلام الواجدين والمستهترين بذكر الله تعالى يكون مجملاً وتفصيلاً، وإنما يجد المتعنت فرصة بالوقيعة والطعن في الكلام المجمل دون المفصل، لأن المجمل ربما يكون له مقدمات لم تبلغ المستمع، والمفصل يكون مشروحاً مبيّناً محترزاً، والمجمل لا يكون كذلك وهذا الكلام الذي حكي عن الشبلي رحمه الله كلام مجمل له مقدمات، فإذا سمع العاقل مقدماته لم يتشنع عليه ما قاله الشبلي رحمه الله، وإذا لم يسمع بالمقدمات التي قد تقدمت قبل هذا الكلام فأحرى أن يتشنع عليه فينكر قلبه ذلك) [٢٥].

وبناء على ماسبق:

إن السراج الطوسي يقرر موقفه من التكفيريين المنكرين من مشيخة الصوفية فيقول صفحة (٤٩٧):

(أما الذين نصبوا العداوة مع هؤلاء القوم واعتقدوا فيهم الباطل فعلى وجهين: فمنهم قوم لم يفهموا معاني ما أشاروا إليه في كلامهم من غامض العلم وجليل الخطب و لم يكن لهم زاجر من العقل ولا واعظ من الدين أن يستبحثوا عن المعاني التي أشكلت عليهم ويسألوا ذلك عن أهلها وقاسوا ما يسمعون ذلك بما علموا من العلوم المبثوثة بين عوام الناس حتى هلكوا، فمنهم من رجع عن ذلك وتاب وأناب، ومنهم من مات على ذلك فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

ومنهم من علم مقاصدهم ومعانيهم فيما قالوا أو قد صحبهم برهة من الدهر فلم يصبر على حالهم ودعاه شيطانه وهواه إلى طلب الرياسة وجمع الدنيا وأكل أموال الناس بالباطل، فجعل المعاداة والمنافاة معهم والطعن والوقيعة فيهم والسفاهة والإنكار عليهم سلماً إلى جمع الدنيا وسبباً إلى قبول قلوب الجهلة من العامة له، فلا يبالي بعدما أسرته أهواؤه واستحوذته شياطينه أن يسفك الدماء ويأكل الحرام ويرتكب المآثم ويشهد بالزور ويكذب على الله وعلى

رسوله ويبسط بالوقيعة والطعن على أوليائه وأصفيائه وينسبهم إلى الكفر والزندقة والبدعة والضلال ويهيج على سفك دمائهم الغاغة والجهلة من العامة، فكم من وليٍّ لله قد قتلوا من هؤلاء؟ وكم جمع في طاعة الله ورضاه قد فرقوه؟ وما خلق الله على وجه الأرض قوماً شراً من هؤلاء، ولو ذكرت قصص هؤلاء وما أعلم من اعتدائهم على هذه الطائفة قديماً وحديثاً يطول) **[٢٦]**.

وفي مناقشة جرت بين السراج الطوسي وبين العلامة ابن سالم في تكفير أبي يزيد البسطامي في قول: سبحاني سبحاني – والطوسي معترف لابن سالم بجلالة القدر في العلم ولكن يناقشه على أساس تلك المبادىء، فيقول صفحة (٤٧٢ – ٤٧٤):

(سمعت ابن سالم يقول في مجلسه يوماً: فرعون لم يقل ما قال أبو يزيد رحمه الله، لأن فرعون قال أنا ربكم الأعلى، والرب يسمى به المخلوق، فيقال فلان رب دار ورب مال ورب بيت، وقال أبو يزيد رحمه الله سبحاني سبحاني، وسبوح وسبحان اسم من أسماء الله تعالى الذي لا يجوز أن يسمى به غير الله تعالى.

فقلت له: هذا الكلام هل صح عندك عن أبي يزيد رحمه الله؟ وصح عندك أن اعتقاده في ذلك كان كاعتقاد فرعون في قوله أنا ربكم الأعلى؟ فقال ابن سالم قد قال ذلك وحتى يصح عندى أنه أيش أراد بذلك يلزمه الكفر.

فقلت: إذا لم يتهيأ لك أن تشهد عليه بما اعتقد عند قوله ذلك فبطل أن تكفره لأنه يحتمل أن يكون لهذا الكلام مقدمات فيقول يعقبه سبحاني سبحاني يحكي عن الله تعالى يقول سبحاني سبحاني، لأنا لو سمعنا رجلاً يقول: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء٢٥ ما كان يختلج في قلوبنا شيء غير أن نعلم أنه هو ذا يقرأ القرآن، أو هو ذا يصف الله تعالى بما وصف به نفسه. وكذلك لو سمعنا دائباً أبا يزيد رحمه الله أو غيره وهو يقول سبحاني سبحاني لم نشك بأنه يسبح الله تعالى ويصفه بما وصف به نفسه.

وإذا كان الأمر هكذا وعلى ما قلناه فتكفيرك لرجل مشهور بالزهد والعبادة والعلم والمعرفة من أعظم المحالات.

وقد قصدت بسطام وسألت جماعة من أهل بيت أبي يزيد رحمه الله عن هذه الحكاية فأنكروا ذلك، وقالوا لا نعرف شيئاً من ذلك، ولولا أنه شاع في أفواه الناس ودوّنوه في الكتب ما اشتغلت بذكر ذلك.

وسمعت ابن سالم أيضاً وهو يحكي في مجلسه عن أبي يزيد رحمه الله أنه قال ضربت خيمتي بإزاء العرش أو عند العرش، وكان يقول هذه الكلمة كفر ولا يقول مثل هذا إلا كافر.

وكان يقول أيضاً إن أبا يزيد رحمه الله اجتاز بمقبرة اليهود فقال معذورون، ومرّ بمقبرة المسلمين فقال مغرورون.

ومع جلالة ابن سالم كان يسرف في الطعن على أبي يزيد رحمه الله، وكان يكفّره من أجل أنه قال ذلك.

فقلت له عافاك الله إن علماء نواحينا يتبركون بتربة أبي يزيد رحمه الله إلى يومنا هذا، ويحكون عن المشايخ المتقدمين أنهم كانوا يزورونه وكانوا يتبركون بدعائه، وهو عندهم من أجلة العباد والزهاد وأهل المعرفة بالله، ويذكرون أنه فاق أهل عصره بالورع والاجتهاد ودوام الذكر لله تعالى، حتى حكى عنه جماعة أنهم رأوه قد ذكر الله تعالى حتى بال الدم من خشية الله تعالى ودوام تعظيمه لله عز وجل.

وكيف يجوز أن نعتقد فيه الكفر بحكاية تحكى عنه ولم نعرف إرادته فيما قال ولا نطلع على حاله في الوقت الذي

قال؟! وهل يجوز لنا أن نحكم عليه فيما يبلغنا عنه إلا بعد أن يكون لنا حال مثل حاله ووقت مثل وقته ووجد مثل وجده؟ أوليس قد قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} الحجرات١٢.

فهذا كلام جرى بيني وبين ابن سالم في مجلسه في الحكايات التي حكاها عن أبي يزيد رحمه الله أو كلام هذا معناه أو

[٢٧]

قريب من معناه) .

ثم إن الإمام الطوسي يعلّق على هذه المناقشة بقوله صفحة (٤٧٥ – ٤٧٦):

(فالتعنت والجسارة بالطعن والوقيعة من العلماء فيمن تكون جوارحه مضبوطة مقيدة بالعلم والأدب بحكاية أو بكلام لا يحيط به الفهم في الوقت زلة من العالم وهفوة من الحكيم وخطأ بيّن من العاقل، لأنه ربما تصحف على الحكيم، لأن الحكمة ربما تجري ويحضرها من لا يقف على معانيها ولا يلحق فهمه مقاصد المتكلم بها، فعند ذلك تجري على الألسنة بضد معانيها، فيلحق الحكيم عند ذلك نقص عند من لا يقف على مراميه ويشكل عليه معانيه ولم يشرف على مكانه ولا يسأل عن بيانه لأن الغامض من العلوم لا يدرك إلا بالغامض من الفهوم.

والتصحيف الذي يقع في الحكمة يقع من وجهين، فوجه منها تصحيف الحروف وذلك أيسره، والوجه الثاني تصحيف المعنى وهو أن يتكلم الحكيم بكلمة من حيث وقته وحاله فلا يكون للمستمع ذلك الحال والوقت فيصحف معناه فيعبِّر عنها من حيث ما يليق بحاله ووقته ومقامه ووجده فيغلط في ذلك ويهلك.

سمعت أبا عمرو بن علوان يقول: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: كنت أصحب هذه الطائفة وأنا حدث، فكنت أسمع منهم كلاماً لم أفهم عنهم ما يقولون إلا أن قلبي قد سلم من الإنكار عليهم فبذلك نلت ما نلت.

ومما يقوي هذا الذي ذكرت أني كنت في مجلس ابن سالم بالبصرة بعد هذا الخوض الذي جرى بيني وبينه في كلام أبي يزيد رحمه الله، فحكى يوماً عن سهل بن عبد الله رحمه الله أنه قال: ذكر الله تعالى باللسان هذيان، وذكر الله بالقلب وسوسة، فسئل عن ذلك فقال: كأنه أراد بذلك أن يكون قائماً بالمذكور لا بالذكر.

ثم حكى في مجلس آخر عن سهل بن عبد الله رحمه الله أيضاً أنه قال مولاي لا ينام وأنا لا أنام، فقلت لبعض أصحابه ممن كان يخصه لولا أن الشيخ أميل إلى سهل بن عبد الله رحمه الله منه إلى أبي يزيد رحمه الله لكان يخطئه أيضاً فيما قد حكي عنه، كما خطأ أبا يزيد رحمه الله وكفّره بين يديك في الكلام الذي حكي عنه، لأن في هذا الذي قد حكي عن سهل رحمه الله وهو إمامه وأفضل الناس عنده يجد المتعنت مقالاً إن قصد إلى ذلك، والذي يعلم أن لهذا الذي حكاه عن سهل بن عبد الله رحمه الله وجهاً غير ما يجد المتعنت فيه مطعناً، فكذلك يجوز أن يكون لكلام أبي يزيد رحمه الله الذي حكاه عنه وجه غير الوجه الذي هو ذا يكفره به ويخطئه فيما قال، فلم يكن له جواب عند ذلك أو

[٢٨]

كلام هذا قريب من معناه وبالله التوفيق) .

لقد كانت المبادىء التي أرساها السراج الطوسي والقواعد التي قعّدها من القوة والانضباط بمكان أن صار أهل العلم بعده تبع له فيها فاعتمدها مشيخة الصوفية في حجاجها عن مثل أبي يزيد البسطامي، بل إن كبار شيوخ المدرسة السلفية قد اعتمدها أيضاً وقررها بتفصيل وتأصيل، كما تجد ذلك عند شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم والحافظ الذهبي.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/٣٣٩) وهو يشرح معنى: فناء القلب عن شهود ما سوى الرب قال:

(وفي هذا الفناء قد يقول: أنا الحق أو سبحاني أو ما في الجبة إلا الله إذا فني بمشهوده عن شهوده وبموجوده عن وجوده وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن عرفانه. كما يحكون أن رجلاً كان مستغرقاً في محبة آخر فوقع المحبوب في اليم فألقى الآخر نفسه خلفه، فقال: ما الذي أوقعك خلفي فقال: غبت بك عني فظننت أنك أني وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان كما يحصل بسكر الخمر وسكر عشق الصور، وكذلك قد يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء كما يحصل بحال حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق ويصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارى وهي شطحات بعض المشايخ كقول بعضهم: أنصب خيمتي على جهنم ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة للشرع وقد يكون صاحبها غير مأثوم وإن لم يكن فيشبه هذا الباب أمر خفراء العدو ومن يعين كافراً أو ظالماً بمال ويزعم أنه مغلوب عليه ويحكم على هؤلاء أن أحدهم إذا زال عقله بسبب غير محرم فلا جناح عليهم فيما يصدر عنهم من الأقوال والأفعال المحرمة بخلاف ما إذا كان سبب زوال العقل والغلبة أمراً محرماً) [٢٩]

وقال أيضاً في مجموع الفتاوى (١٠/٣٤٨):

(الأحوال التي ترد على العباد وأهل المعرفة والزهاد ونحوهم مما توجب زوال عقل أحدهم وعلمه حتى تجعله كالمجنون والموله والسكران والنائم، أو زوال قدرته حتى تجعله كالعاجز، أو تجعله كالمضطر الذي يصدر عنه القول والفعل بغير إرادته واختياره، فإن زوال العقل والقدرة قد يوجب عجزه عن أداء الواجبات وقد يوجب وقوعه في محرمات.

فهؤلاء يقال فيهم: إن كان زوال ذلك بسبب غير محرم فلا حرج عليهم فيما يتركونه من الواجبات ويفعلونه من المحرمات، ولا يجوز أيضاً اتباعهم فيما هو خارج عن الشريعة من أقوالهم وأفعالهم، ولا نذمهم على ذلك بل قد يمدحون على ما وافقوا فيه الشريعة من الأقوال والأعمال، ويرفع عنهم اللوم فيما عذرهم الشارع كما يقال في المجتهد المخطيء سواء، بل المجتهد المخطيء نوع من هذا الجنس حيث سقط عنه اللوم لعجزه عن العلم وإن كان زوال ذلك بسبب المحرم استحقوا الذم والعقاب على ما يتركونه من واجب ويفعلونه من محرم) [٣٠]

وقال العلامة ابن القيم في مدارج السالكين (١/١٥٥):

(وأما الفناء عن شهود السوى: فهو الفناء الذي يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين ويعدونه غاية وهو الذي بنى عليه أبو إسماعيل الأنصاري كتابه: وجعله الدرجة الثالثة في كل باب من أبوابه.

وليس مرادهم فناء وجود ما سوى الله بالخارج بل فناؤه عن شهودهم وحسهم، فحقيقته: غيبة أحدهم عن سوى مشهوده، بل غيبته أيضاً عن شهوده ونفسه لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبموجوده عن وجوده، وبمحبوبه عن حبه، وبمشهوده عن شهوده، وقد يسمى حال مثل هذا سكراً واصطلاماً ومحواً وجمعاً، وقد يفرقون بين معاني هذه الأسماء وقد يغلب شهود القلب بمحبوبه ومذكوره حتى يغيب به ويفنى به فيظن أنه اتحد به وامتزج، بل يظن أنه هو نفسه، كما يحكى أن رجلاً ألقى محبوبه نفسه في الماء فألقى المحب نفسه وراءه فقال له: ما

الذي أوقعك في الماء ؟ فقال: غبت بك عني فظننت أنك أني. وهذا إذا عاد إليه عقله يعلم أنه كان غالطاً في ذلـــك، وأن الحقائق متميزة في ذاتها، فالرب رب والعبد عبد والخالق بائن عن المخلوقات ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، ولكن في حال السكر والمحو والاصطلام والفناء: قد يغيب عن هذا التمييز، وفي هذه الحال قد يقول صاحبها ما يحكى عن أبي يزيد أنه قال: "سبحاني" أو "ما في الجبة إلا الله" ونحو ذلك من الكلمات التي لـــو صدرت عن قائلها وعقله معه لكان كافراً، ولكن مع سقوط التمييز والشعور قد يرتفع عنه قلم المؤاخذة. وهذا الفناء يحمد منه شيء ويذم منه شيء ويعفى منه عن شيء. فيحمد منه: فناءه عن حب ما سوى الله وعن خوفه ورجـــاءه والتوكل عليه والإستعانة به والالتفات إليه بحيث يبقى دين العبد ظاهراً وباطناً كله لله.

وأما عدم الشعور والعلم بحيث لا يفرق صاحبه بين نفسه وغيره، ولا بين الرب والعبد — مع اعتقاده الفـــرق — ولا بين شهوده ومشهوده، بل لا يرى السوى ولا الغير: فهذا ليس بمحمود ولا هو وصف كمال ولا هو مما يرغب فيـــه ويؤمر به بل غاية صاحبه: أن يكون معذوراً لعجزه وضعف قلبه وعقله عن احتمال التمييز والفرقان وإنزال كل ذي مترلة مترلته موافقة لداعي العلم ومقتضى الحكمة وشهود الحقائق على ما هي عليه، والتمييز بين القـــديم والمحـــدث والعبادة والمعبود، فيترل العبادة منازلها ويشهد مراتبها ويعطي كل مرتبة منها حقها من العبودية ويشهد قيامه بها، فإن شهود العبد قيامه بالعبودية أكمل في العبودية من غيبته عن ذلك فإن أداء العبودية في حال غيبة العبد عنها وعن نفسه بمترلة أداء السكران والنائم وأداؤها في حال كمال يقظته وشعوره بتفاصيلها وقيامه بها أتم وأكمل وأقوى عبوديـــة) [٣١]

وقال أيضاً في مدارج السالكين (٣٩/٢):

(وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس إحداهما: حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم فأهدروها لأجل هذه الشطحات وأنكروها غاية الإنكار وأساءوا الظن بهم مطلقاً وهـــذا عـــدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ وغلط ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلـــت معالمها.

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم وصفاء قلوبهم وصحة عزائمهم وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحات ونقصانها فسحبوا عليها زيل المحاسن وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها واستظهروا بها في سلوكهم. وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون

والطائفة الثالثة: هم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي مترل مترلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد) [٣٢]

وقال أيضاً في مدارج السالكين(١٥١/٣):

(فإياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبه التي وقع إصطلاح القوم عليها فإنها أصل البلاء وهي مورد الصديق والزنديـــق فإذا سمع الضعيف المعرفة والعلم بالله تعالى لفظ "اتصال وانفصال ومسامرة ومكالمة وأنه لا وجـــود في الحقيقـــة إلا

وجود الله وأن وجود الكائنات خيال ووهم، وهو بمنزلة وجود الظل القائم بغيره "فاسمع منه ما يملأ الآذان من حلول واتحاد وشطحات.

والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها وأرادوا بها معاني صحيحة في أنفسها، فغلط الغالطون في فهم ما أرادوه ونسبوهم إلى إلحادهم وكفرهم) [٣٣].

ثم إن ابن القيم أعطى ذلك تأصيلاً كما فعل شيخه ابن تيمية فقال في مدارج السالكين (٣/٣٣٠):

(فاعلم أن في لسان القوم من الاستعارات وإطلاق العام وإرادة الخاص وإطلاق اللفظ وإرادة إشارته دون حقيقة معناه ما ليس في لسان أحد من الطوائف غيره، ولهذا يقولون: نحن أصحاب إشارة لا أصحاب عبارة، والإشارة لنا والعبارة لغيرنا، وقد يطلقون العبارة التي يطلقها الملحد ويريدون بها معنى لا فساد فيه، وصار هذا سبباً لفتنة طائفتين: طائفة تعلقوا عليهم بظاهر عباراتهم فبدعوهم وضللوهم، وطائفة نظروا إلى مقاصدهم ومغزاهم فصوبوا تلك العبارات وصححوا تلك الإشارات، فطالب الحق يقبله ممن كان ويرد ما خالفه على من كان) [٣٤].

أما الحافظ الذهبي فإنه ترجم لأبي يزيد البسطامي في كتبه ترجمة مشرقة مونقة ودافع عنه والتمس له المعاذير. قال في (العبر في خبر من غبر) (١/٣٧٥):

(أبو يزيد البسطامي العارف الزاهد المشهور، واسمه طيفور بن عيسى، وكان يقول: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الشريعة) [٣٥].

قال في (سير أعلام النبلاء) (١٣/٨٦):

(أبو يزيد البسطامي سلطان العارفين، أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، أحد الزهاد أخو الزاهدين: آدم وعلي وكان جدهم شاروسان مجوسياً فأسلم يقال: أنه روي عن: إسماعيل السدي وجعفر الصادق أي: الجد وأبو يزيد فبالجهد أن يدرك أصحابها.

وقل ما روي وله كلام نافع منه قال: ما وجدت شيئاً أشد عليّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت حائراً. وقال: لله خلق كثير يمشون على الماء لا قيمة لهم عند الله، ولو نظرتم إلى من أعطي من الكرامات حتى يطير فلا تغتروا به حتى تروا كيف هو عند الأمر والنهي وحفظ الحدود والشرع.

وله هكذا نكت مليحة، وجاء عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها الشأن في ثبوتها عنه أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر والغيبة والمحو فيطوي ولا يحتج بها إذ ظاهرها إلحاد مثل: سبحاني، وما في الجبة إلا الله، ما النار؟ لأستندنَّ إليها غداً وأقول: اجعلني فداءً لأهلها، وإلا بلعتها. ما الجنة؟ لعبة صبيان ومراد أهل الدنيا. ما المحدثون؟ إن خاطبهم رجل عن رجل فقد خاطبنا القلب عن الرب.

وقال في اليهود: ما هؤلاء؟ هبهم لي أي شيء هؤلاء حتى تعذبهم؟

قال السلمي في (تاريخ الصوفية): توفي أبو يزيد عن ثلاث وسبعين سنة وله كلام حسن في المعاملات ثم قال: ويحكى

عنه في الشطح أشياء منها ما لا يصح أو يكون مقولاً عليه وكان يرجع إلى أحوال سنية) .
وقال في كتاب (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) صفحة (١١٠):
(طيفور بن عيسى أبو يزيد البسطامي الزاهد العارف من كبار مشايخ القوم، وهو بكنيته أشهر وأعرف، وله أخوان آدم وعلي كانا زاهدين عابدين، وكان جدهم أبو عيسى آدم بن عيسى مجوسياً فأسلم.
ومن كلام أبي يزيد رحمه الله قال: ما وجدت شيء أشد عليّ من العلم ومتابعته ولولا اختلاف العلماء لبقيت حائراً.
وقال: هذا من فرحي بك وأنا أخافك فكيف فرحي إذا أمنتك.
وعنه قال: ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير، وإنما العجب من حبك لي وأنت ملك قدير.
وعنه وقيل له: إنك تمر في الهواء، قال: وأي أعجوبة هذا؟ طير يأكل الميتة يمر في الهواء والمؤمن أشرف منه.
وعنه قال: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر.
وعنه قال: الجنة لا خطر لها عند المحبين هم محجوبون بمحبتهم.
وقال: ما ذكروه إلا بالغفلة ولا خدموه إلا بالفترة.
وعنه قال: اللهم لا تقطعني بك عنك.
وعنه قال: العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول.
وقيل له: علمنا الاسم الأعظم فقال: ليس له حد إنما هو فراغ قلبك لوحدانيته، فإذا كنت كذلك فارفع له أي اسم شئت.
وعنه قال: لله خلق كثير يمشون على الماء وليس لهم عند الله قيمة.
وكان يقول: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ والحدود وأداء الشريعة.
قلت: بل قد اغتر أهل زماننا وخالفوا أبا يزيد وأكبر من أبي يزيد، وتهافتوا على كل مجنون بوال على عقبيه له شيطان ينطق على لسانه بالمغيبات نسأل الله السلامة.
قيل: إن أبا يزيد توفي سنة إحدى وستين ومائتين، وقد نقلوا عنه أشياء من متشابه القول الشأن في صحتها عنه ولا تصح عن مسلم فضلاً عن مثل أبي يزيد منها: سبحاني
ومنها: ما النار؟ لأستندن إليها غداً وأقول: اجعلني لأهلها فداءً ولا يلعنها. وما الجنة؟ لعبة صبيان ومراد أهل الدنيا ما المحدثون إن خاطبهم رجل عن رجل فقد خاطبنا القلب عن الرب.
وقال في يهود: هبهم لي ما هؤلاء حتى تعذهم؟!
وهذا الشطح إن صح عنه فقد يكون قاله في حالة سكر، وكذلك قوله عن نفسه: ما في الجبة إلا الله. وحاشا مسلم فاسق من قول هذا واعتقاده. يا حي يا قيوم ثبتنا بالقول الثابت.
وبعض العلماء يقول: هذا الكلام مقتضاه ضلالة ولكن له تفسير وتأويل يخالف ظاهره فالله أعلم.

قال السلمي في تاريخه: مات أبو يزيد عن ثلاث وسبعين سنة وله كلام حسن في المعاملات.
قال ويحكى عنه في الشطح أشياء منها ما لا يصح ويكون مقولاً عليه وكان يرجع إلى أحوال سنية.
ثم ساق بسنده عن أبي يزيد قال: من لم ينظر إلى شاهدي بعين الاضطراب، وإلى أوقاتي بعين الاغتراب، وإلى أحوالي بعين الاستدراج، وإلى كلامي بعين الافتراء، وإلى عباراتي بعين الاجتراء، وإلى نفسي بعين الازدراء فقد أخطأ النظر [٣٧] فيّ. وعن أبي يزيد قال: لو صفا لي تهليلة ما باليت بعدها.)

وبمثل هذه الكلمات ترجمه الحافظ الذهبي أيضاً في كتابه ميزان الاعتدال٣/٦٣٣) [٣٨]) ترقيم ٤٣٧٠ والحافظ بن حجر العسقلاني له زوائد وتعليقات على كلام الذهبي في كتابه (لسان الميزان) [٣٩] ولكن لم يعلق على ما قاله الذهبي بشيء انظر (لسان الميزان) (٣/٢٦٥) ترقيم: ٤٣٤٣/٥١.

نتائج وآثار الحركة التصحيحية في التصوف الإسلامي للإمام السراج الطوسي

لا يشك باحث في تاريخ التصوف في قوة الأثر الذي أحدثته الرسالة القشيرية للإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري في أوساط الصوفية منذ تأليفها إلى هذا اليوم، فقد وضعت لها الشروح والحواشي والتعليقات مثل شرح شيخ الإسلام القاضي زكريا بن محمد الأنصاري (المتوفي سنة ٩١٦هـ) سماه (إحكام الدلالة على تحرير الرسالة) ووضع الشيخ مصطفى العروسي له حاشية سماها (نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني الرسالة القشيرية) واستخرج فوائدها عبد المعطي بن محمود اللخمي الإسكندري في كتابه (الدلالة على فوائد الرسالة) إلى غير ذلك من الشروحات والتعليقات وقد طبعت الرسالة القشيرية طبعات كثيرة جداً.

لقد أصبحت مسائل الرسالة القشيرية هي الأساس الذي بنيت عليه قواعد التصوف، بل أصبح شيوخ الرسالة منظوراً إليهم وإلى أحوالهم كمعيار لمن يدعي الانتساب إلى التصوف، وجرى في أوساط العلماء أنه لا يسأل عن رجال الرسالة لأنهم جاوزا القنطرة فقد عوملوا في علم التصوف كما عومل رجال الصحيحين البخاري ومسلم في علم الحديث النبوي.

لكن الذي لا يعرفه كثير من أهل العلم فضلاً عن غيرهم أن الرسالة القشيرية ما هي إلا نتيجة من نتائج وآثار الحركة التصحيحية في التصوف التي قادها الإمام السراج الطوسي، بل إن أغلب مسائل الرسالة ما هي إلا ترديد أو تعبير آخر لكلمات السراج الطوسي. إن مورد هذا التأثير هو أن الإمام القشيري تتلمذ على الإمام أبي عبد الرحمن السلمي محمد بن الحسين الأزدي النيسابوري صاحب كتاب (طبقات الصوفية)، وأبو عبد الرحمن السلمي هو تلميذ الإمام السراج الطوسي، وقد ظهرت آثار تلمذته له في طبقاته، كما ظهرت في الإمام القشيري الذي أعلن بها في الرسالة القشيرية التي هي منهاج الصوفية إلى هذا اليوم.

ومن ناحية أخرى كان الإمام القشيري شيخاً للإمام أبي الحسن علي بن عثمان الهجويري (متوفى سنة ٤٦٥هـ) صاحب كتاب (كشف المحجوب) المكتوب باللغة الفارسية ترجمه من الإنكليزية إسماعيل ماضي أبو العزائم، وطابقه على الأصل الفارسي دكتور إبراهيم الدسوقي مدرس اللغات الشرقية بكلية الآداب في جامعة القاهرة.

ولا يخفى على أهل العلم أثر كتاب (كشف المحجوب) في أوساط المسلمين في الشعوب الناطقة باللغة الفارسية، كما لا يختلف الباحثون المحققون إن الإمام الهجويري تأثر تأثيراً قوياً بـــ(الرسالة القشيرية) وبكتاب (اللمع)، وعلى هـــذا يمكننا أن نقول إن كل الحركات التصحيحية في التصوف الإسلامى خرجت من مدرسة الإمام السراج الطوسي. قال مترجمو ومحققو كتاب (كشف المحجوب) في المقدمة:

(إن الحديث عن ضياع علم التصوف بين غير أهله نجده في مقدمات معظم كتب التصوف الـــتي كتبـــت في ذلـــك العصر، فكما نجدها في مقدمة هذا الكتاب الذي بين أيدينا نجدها في مقدمة الرسالة القشيرية، ونجدها أيضاً في مقدمة كتاب التصفية في أحوال المتصوفة الذي كتبه بالفارسية بعد الهجويرى بقليل قطب الدين العبادي، كما أن هذا الاتجاه هو الذي أخرج فيما بعد موسوعة الغزالي العظيمة (إحياء علوم الدين) وقد استفاد الهجويري في تأليف كتابه هذا من مجموعة من كتب التصوف التي سبقت. استفاد من كتاب أبي عبد الرحمن السلمي "طبقات الصوفية" كما اســـتفاد كل الفائدة من الرسالة القشيرية ومن قوت القلوب لأبي طالب المكي وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصـــبهاني واللمـــع للسراج الطوسي، وقد ذكرت كل كتاب من هذه الكتب في الموضع الذي استفاد منه الهجويري مقارناً بين النصوص المنقولة والنص الموجود. ومن نافلة القول أن أذكر أن كل حكايات الشيوخ الموجودة في كشف المحجوب موجـــودة بنصها في الكتب التي سبقته وخاصة الرسالة القشيرية واللمع.

ومن نافلة القول أيضاً أن نذكر أن معظم كتب التصوف الفارسي التي كتبت بعد كشف المحجوب قد استفادت منه، فنقل عنه فريد الدين العطار في كتابه تذكرة الأولياء، ونقل عنه عبد الرحمن الجامي في كتابه نفحات الأنس وهـــذا على سبيل المثال لا الحصر) [٤٠].

بناءً على ما سبق يمكننا أن ننظر أيضاً إلى آثار كتاب اللمع للطوسى في كتاب (عوارف المعارف) لشهـــاب الديـــن السهروردي خصوصاً في الفصل التاسع الذي عنونه بعنوان (ذكر من انتسب إلى الصوفية وليس منهم). ومن حقـــق عرف أن أغلب الحركات التصحيحية في التصوف الإسلامى هي تبع لهؤلاء وهم تبع للإمام السراج الطوسي في لمعه.

مسرد رقم (١)

الاســـــــــــــــم	تاريخ الوفاة
١- أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم	١٦١
٢- أبو سليمان داود بن نصير الطائي	١٦٥
٣- أبو علي الفضيل بن عياض	١٨٧
٤- أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي	١٨٨
٥- أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي	١٩٤
٦- أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي	٢٠٠
٧- أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني	٢١٥
٨-أبو نصر بشر بن الحارث الحافي	٢٢٧

٩- أبو الحسين أحمد بن أبي الحواري	٢٣٠
١٠- أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان الأصم	٢٣٧
١١- أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي	٢٤٠
١٢- أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي	٢٤٣
١٣- أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصري	٢٤٥
١٤- أبو تراب عسكر بن حصين النخشبي	٢٤٥
١٥- أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد البصري، المشهور بابن الأعرابي	٢٤٦
١٦- أبو الحسن سري بن مغلس السقطي	٢٥٣
١٧- أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي	٢٥٨
١٨- أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد	٢٦٠
١٩- أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار	٢٧١
٢٠- أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز	٢٧٧
٢١- أبو محمد سهل بن عبد الله التستري	٢٨٣
٢٢- أبو حمزة البغدادي	٢٨٩
٢٣- أبو القاسم سمنون بن حمزة	٢٩٠
٢٤- أبو حمزة الخراساني	٢٩٠
٢٥- أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص	٢٩١
٢٦- أبو عبد الله عمر بن عثمان المكي	٢٩١
٢٧- أبو الحسين أحمد بن محمد النوري	٢٩٥
٢٨- أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري	٢٩٧
٢٩- أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري	٢٩٨
٣٠- أبو العباس أحمد بن مسروق	٢٩٨
٣١- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي	٢٩٩
٣٢- أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني	٢٩٩
٣٣- ممشاد الدينوري	٢٩٩
٣٤- أبو محمد رويم بن أحمد	٣٠٣
٣٥- أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي	٣٠٤
٣٦- أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل عطاء الأدمي	٣٠٩
٣٧- أبو محمد عبد الله بن محمد الخراز	٣١٠
٣٨- أبو الحسن بنان بن محمد الحمال	٣١٦

٣٩- أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخي	٣١٩
٤٠- أبو علي أحمد بن محمد الروزباري	٣٢٢
٤١- أبو بكر محمد بن علي الكتاني	٣٢٢
٤٢- أبو إسحاق إبراهيم بن داود الرقي	٣٢٦
٤٣- أبو الحسن علي بن محمد المزين	٣٢٨
٤٤- أبو علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي	٣٢٨
٤٥- أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش	٣٢٩
٤٦- أبو محمد عبد الله بن منازل	٣٢٩
٤٧- أبو الحسن علي بن محمد بن سهل الدينوري	٣٣٠
٤٨- أبو يعقوب إسحق بن محمد النهرجوري	٣٣٠
٤٩- أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري	٣٣٠
٥٠- أبو بكر محمد بن موسى الواسطي	٣٣١
٥١- أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي	٣٣٤
٥٢- أبو بكر الطمستاني	٣٤٠
٥٣-أبو علي الحسن بن أحمد بن الكاتب	٣٤٠
٥٤- أبو الخير الأقطع	٣٤٠
٥٥- أبو العباس أحمد بن محمد الدينوري	٣٤٠
٥٦- أبو العباس القاسم بن القاسم السياري	٣٤٢
٥٧- أبو الحسن علي بن أحمد بن سهل البوشنجي	٣٤٨
٥٨- أبو عمرو محمد بن إبراهيم الزجاجي	٣٤٨
٥٩- أبو محمد جعفر بن محمد بن نصر	٣٤٨
٦٠- أبو بكر محمد بن داود الدينوري	٣٥٠
٦١- أبو محمد عبد الله الرازي	٣٥٣
٦٢- أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازي	٣٥٣
٦٣- أبو عمر إسماعيل بن نجيد	٣٦٦
٦٤- أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروزباري	٣٦٩
٦٥- أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر اباذي	٣٦٩
٦٦- أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي	٣٧١
٦٧- أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري	٣٧١
٦٨- أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي	٣٧٣

٦٩- أبو الحسن علي بن سهل الأصبهاني

٧٠- أبو علي أحمد بن عاصم الأنطاكي

٧١- أبو عبيد البسري

٧٢- أبو الحسن بن بنان

٧٣- أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي

٧٤- أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري

٧٥- أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء

٧٦- أبو محمد عبد الله بن خبيق

٧٧- أبو بكر أحمد بن نصر الزقاق

٧٨- أبو السرى منصور بن عمار المروزي

٧٩- أبو إسحق إبراهيم بن شيبان القرمسيني

٨٠- مظفر القرمسيني

٨١- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل النساج

٨٢- أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي

٨٣- أبو بكر الحسين بن علي بن يزدانيار

مسرد رقم (٢)

الحافظ أبو سعيد بن الأعرابي ٣/٨٥٢

الحافظ محمد بن داود بن سليمان ٣/٩٠١

الحافظ أبو الطيب محمد بن جعفر بن دران، المشهور بغندر ٣/٩٦١

الحافظ أبو الفضل نصر بن محمد بن يعقوب الطوسي ٣/١٠١٦

الحافظ الماليني الهروي ٣/١٠٧٠

الحافظ أبو محمد عطية بن سعيد الأندلسي ٣/١٠٨٨

الحافظ أبو نعيم الأصبهاني ٣/١٠٩٢

الحافظ أبو ذر الهروي ٣/١١٠٣

الحافظ أبو صالح المؤذن النيسابوري ٣/١١٦٢

الحافظ أبو إسماعيل الهروي ٣/١١٨٣

الحافظ أبو يعقوب الشيرازي ٤/١٣٥٦

الحافظ أبو عبد الله محمد بن الحسين اليونيني ٤/١٤٣٩

الحافظ أبو علي الحسين بن محمد البكري ٤/١٤٤٤

الحافظ أبو زكريا النووي ٤/١٤٧٠

الحافظ أبو الفتح محمد بن أحمد الأبيوردي	٤/١٤٧٥
الحافظ أبو الحسن على بن مسعود الموصلي	٤/١٥٠٠
الحافظ صفي الدين الأرموي	٤/١٥٠٠
الحافظ ضياء الدين بن حمويه الخرساني	٤/١٥٠٥

---

*
أستاذ مشارك – كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة إفريقيا العالمية.

١ .الحافظ الذهبي – تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ص٦٢٦,

٢
العبر في خبر من غبر، الحافظ الذهبي، ٢/١٥١,

٣
طبقات الصوفية – أبو عبد الرحمن السلمي.

١
. سير أعلام النبلاء، الحافظ الذهبي، ص١٨-٥١٠,

٢
. تذكرة الحفاظ، الحافظ الذهبي، ٣/١١٨٥,

٣
. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، ١/٣٩٠,

٤
. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١١/٥,

١
. مجموع الفتاوي، ابن تيمية ١١/٦,

٢
. ميزان الاعتدال – الحافظ الذهبي ٢/٦٧٣,

٣
. التاريخ، الخطيب البغدادي ١/٣٩٠,

٤
. الوسائل في معرفة الأوائل، للإمام السيوطي، ص٢٩,

١
. مجموع الفتاوي، ابن تيمية ١١/١٦,

٢
. مجموع الفتاوي، ابن تيمية ١١/٦,

١
. السراج الطوسي، اللمع ٢٢,

٢
. السراج الطوسي، اللمع ٣٣,

١
. السراج الطوسي، اللمع ٥١٦,

٢
. السراج الطوسي، اللمع ٥١٦.

[١]
. السراج الطوسي، اللمع ٥٢٧.

[٢]
. السراج الطوسي، اللمع ٥٢٧.

[٣] . السراج الطوسي، اللمع ٥٢٨.

[٤] . السراج الطوسي، اللمع ٥٢٨.

[٥] . السراج الطوسي، اللمع ٥٢٩.

[٦] . السراج الطوسي، اللمع ٥٢٩.

[٧] . السراج الطوسي، اللمع ٥٢٩.

[٨] . السراج الطوسي، اللمع ٥٣٠.

[٩] . السراج الطوسي، اللمع ٥٤٤.

[١٠] . السراج الطوسي، اللمع ٥٤٨.

[١١] . السراج الطوسي، اللمع ٥٥٢.

[١٢] . السراج الطوسي، اللمع ٥٣٥.

[١٣] . السراج الطوسي، اللمع ٥٣٨.

[١٤] . السراج الطوسي، اللمع ٥٤٣.

[١٥] . السراج الطوسي، اللمع ٥٤٩.

[١٦] . السراج الطوسي، اللمع ٥٥٣.

[١٧] . السراج الطوسي، اللمع ٥٣١.

[١٨] . السراج الطوسي، اللمع ٥٣٣.

[١٩] . السراج الطوسي، اللمع ٥٤٧.

[٢٠] . السراج الطوسي، اللمع ٥٥١.

[٢١] . السراج الطوسي، اللمع ٥٥٤.

[٢٢] . السراج الطوسي، اللمع ٤٥٤.

[٢٣] . السراج الطوسي، اللمع ٤٥٥.

[٢٤] . السراج الطوسي، اللمع ٤٧٣.

[٢٥] . السراج الطوسي، اللمع ٤٨١.

[٢٦] . السراج الطوسي، اللمع ٤٩٧.

[٢٧] . السراج الطوسي، اللمع ٤٧٢-٤٧٤.

[٢٨] . السراج الطوسي، اللمع ٤٧٥-٤٧٦..

[٢٩] . ابن تيمية، الفتاوي ١٠/٣٣٩.

[٣٠] .مجموع الفتاوي، ابن تيمية ١٠/٣٤٨.

[٣١] مدارج السالكين، ابن القيم ١/١٥٥.

[٣٢] . مدارج السالكين، ابن القيم ٢/٣٩.

[٣٣] . مدارج السالكين، ابن القيم ٣/١٥١.

[٣٤] . مدارج السالكين، ابن القيم ٣/٣٣٠.

[٣٥] . العبد في خبر من غبر، الحافظ الذهبي ١/٣٧٥.

[٣٦] . سير أعلام النبلاء، الحافظ الذهبي ١٣/٨٦.

[٣٧] . تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، ص١١٠

[٣٨] . ميزان الاعتدال، الحافظ الذهبي ٣/٦٣٣.

[٣٩] لسان الميزان، الحافظ ابن حجر العسقلاني ٣/٢٦٥.

[٤٠] كشف المحجوب، علي بن عثمان الهجويري (ت: ٤٦٥)